المكابر الثالث
«سآوي إلى جبل»

كل الدَّلائل التي جرت عبر مئات السنوات، تؤكد أنَّ أولئك القوم في طريقهم إلى الهلاك، نعم، عَبْر مئات السنوات، لأن الفترة التي ظهرت فيها تلك الدلائل القاطعة امتدت على مدى «تسعمائة وخمسين عاماً» «ألف سنة إلا خمسين عاماً».

فما الذي جرى في هذه المدة الطويلة؟

دعوةٌ صادقة، وإرشاد إلى عبادة الله لا ينقطع، وسعيٌ إلى الهداية والإصلاح لا يتوقف، وبيان للحق والخير والهدى والصلاح لا يتراجع، وحرصٌ على نجاة الناس، وخلاصهم من الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

تسعمائة وخمسون عاماً، اتضحت فيها معالم الحق، وظهر فيها الإيمان الصحيح، وتجلَّى فيها الصبر في أرقى صوره وأسماها، كما تجلت فيه مكابرة المكابرين في أبشع صورها وأقساها. في هذه الفترة الطويلة، كان هذا المكابر الثالث يعيش، وكان من أقرب الناس إلى صاحب الدعوة، وحامل لواء الحق والخير والإرشاد والإصلاح، فقد كان يعيش معه في داخل أسرته، يرى حقيقة دعوته، ويلمس صدق عزيمته، ويسمع صافي حكمته، ويطلع على صلاح منهجه وشريعته، ويعرف معرفة اليقين توافق علانيته مع سريرته.

إنه ابن حامل لواء الدعوة، ورافع شعار النبوة، ومبلِّغ تعاليم الرِّسالة، وهل هنالك أقرب من الابن إلى أبيه؟!

وإنَّ من يعيش في هذه الأجواء، جديرٌ بأن يكون أوَّل المستجيبين للحق من الخلق، وأوَّلَ المميزين بين الكذب والصِّدق، وأوَّل المتبعين للإيمان، والمستمتعين بحلاوة اليقين.

لكنَّ هذا المكابر ظلَّ محجوزاً عن هذا الخير كلِّه بمكابرته، بعيداً عن مصادر النور مع أنَّه يخالطها ويراها كلَّ يوم.

إنَّ حجاب المكابرة حجابٌ كثيفٌ غليظ ـ نعوذ بالله منه ـ لا يستطيع من يعيش وراءه أن يرى مصادر النور أبداً ولا يقدر أن يستوعب معاني الخير أبداً، ولا يستطيع أن يعرف طريق النجاة أبداً.

هنالك رجلٌ أصبح على يقين بعد مرور مئات السنوات، أنَّ قومه قد تجمَّدوا على المكابرة، وتيبَّسوا على العناد، ولم يعد للموعظة عندهم مكان، ولا للدعوة فيهم تأثير.

وما داموا كذلك، فماذا تنفع النُّذر مع قوم لا يؤمنون.

إنه «نوحٌ» عليه السلام، نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوج، أول الأنبياء والرسل بعد آدم عليه السلام.

ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام».

فإذا كان المقصود بالقرن ما هو متعارف عليه «مائة سنة» فإن بينهما «ألف سنة».

وإن كان المقصود بالقرن الجيل من الناس كما قال الرسول ﷺ : «**خير القرون قرني..**».

فلربما كان بين آدم ونوح ألوف السنوات لأن الأجيال كانت تطول أعمارها في ذلك الزمان.

بعث الله «نوحاً» عليه السلام إلى الناس بعد أن انحرفوا عن الإسلام، وعبدوا الأصنام، وكان عمره يوم بعث خمسين سنة، في بعض الأقوال، وقيل: إن عمره كان ثلاثمائة وخمسين سنة يوم بعث، وقيل كان أربعمائة وثمانين سنة ـ والله أعلم ـ.

ظلَّ ـ عليه السلام ـ يدعو، ويدعو، ولكنَّ الناس كانوا في غيبوبة شهواتهم، فلم يؤمن معه إلا قليل من قومه، وطال أمدُ دعوته حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي أوقفت نوحاً عليه السلام أمام الحقيقة الناصعة.

﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ [هود: 32].

لم يعد هنالك أملٌ في هؤلاء الناس، ولكنَّ قلب نوح كبير ما يزال يرجو أن تفتح الأبواب المغلَّقة.

ولكنَّ الأمر قد حسم حسماً قاطعاً بعد ذلك حينما أوحي إلى نوح أن قلوب القوم قد أصبحت أقسى من الحجر الصَّلد.

﴿**وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾**﴾ [هود: 36-37].

«إنهم مغرقون».

كيف يكون ذلك؟

قال بعض السلف:

أمر الله تعالى نبيه نوحاً عليه السلام أن يفرز الخشب، ويقطعه ويُيَبِّسَهُ، فكان ذلك في مائة سنة، ونجَّرها في مائة سنة أخرى، وقيل في أربعين سنة ـ والله أعلم ـ.

وقال ابن كثير:

ذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أنَّ الله أمر نوحاً عليه السلام أن يصنع السفينة من خشب السَّاج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً «أي رأساً» أزور «أي: مائل» يشقُّ الماء.

وهنالك آراء أخرى متعددة في طولها وعرضها حتى بلغ بها بعضهم إلى طول ألفي ذراع في عرض مائة ذراع.

واتفق الرواة على أنَّ ارتفاع السفينة كان ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع.

الطبقة السُّفلى للدواب والوحوش.

والوسطى للإنس.

والعليا للطيور.

(1) المانوية ـ ديانة فارسية أسسها ماني وهي مزيج من الزرداشية واليهودية والمسيحية ـ ثنائية تومن بوجود إلهين للخير والشر. (المترجم).

obeikandl.com

وكان باب السفينة في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبقٌ عليها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: 40].

هذا عمل كبير ظلَّ يجري أمام الناس سنوات طويلة، ولقد كان جديراً بأن يثير في قلوبهم الإحساس بما وراءه لاسيما أنَّهم يعرفون صدق نوح ومثابرته وجدَّه، ولكنَّ داء المكابرة والاغترار أعماهم، فكانوا يسخرون من نوح كلَّما مرُّوا به ورأوه يشتغل في بناء السفينة.

وكان من بين هؤلاء الناس «المكابر الثالث» كنعان بن نوح الذي عميت بصيرته، وقعدت به همَّته، فسخر مع الساخرين، وأعرض مع المعرضين، وهلك مع الهالكين.

لمَّا فار التنُّور الذي كان في بيت نوح وهو علامة وضعها الله لنوح عليه السلام كما تقول الروايات، علم نوح أن عقاب الله قد حان، وأن الطوفان، وما أدراك ما الطوفان، سيغمر الأرض ويغطي كلَّ مكان.

ركب السفينة:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: 41].

هنا رأى نوح ابنه "كنعان" الذي كان منعزلاً عن أبيه في تلك اللحظة، ونادى حينما بدأت السفينة تتحرك، والماء يرتفع:

«يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين»

صورة واضحة لا تحتاج إلى تأويل، وحدثٌ بارزٌ أمام العيون لا يحتاج إلى إعمال ذهن، ونبيٌّ صادق مصدوق، وأبٌ حنون حريص على ولده، ولكنَّ ذلك كلَّه لم يكن ذا أثرٍ في نفس ابن أعمته مكابرته فما عادت ترى عيناه إلا الجبل الشامخ الذي أمامه.

جبل شامخ ضخم، هامته العالية تكاد تناطح السحاب، هذا كلُّ ما كانت تراه عينا «كنعان بن نوح».

أما ذلك الإيقاع الأبوي الحاني المؤثِّر في صوت الأب الحريص على ولده حينما قال: «يا بني اركب معنا».

فلم يكن ليصل إلى قلب مغلف بالعناد والمكابرة ولهذا كانت الإجابة المباشرة كما جاء في القرآن الكريم: ـ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ـ كلام مادي بشري باهتٌ لا قيمة له في مثل هذا المقام، ولو كان قلب الابن المكابر حيّاً لاستيقظ حينما قال له أبوه نوح عليه السلام مباشرة:

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43].

إنها الجملة الأبويَّة النَّبوية الحانية الأخيرة في هذا المقام، ولكنَّ الابن كان غارقاً في بشريته الناقصة، المنسوجة بخيوط المكابرة الغليظة.

ماذا كانت النتيجة؟

«وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» هكذا تكون نهاية المكابرين، هلاكاً وضياعاً وخسارةً كبيرة في لحظات.

ومضت السفينة ناجيةً من ذلك الطوفان العظيم الذي غمر كلَّ شيء، ولم يبق على ظهره إلا تلك السفينة التي كان يسخر منها الساخرون، ويستهزيء بمن يبنيها المكابرون.

ومضت السفينة باسم الله تعالى مائة وخمسين يوماً كما تقول الروايات، حيث انطلقت في عاشر شهر رجب، واستقرَّت بهم على الجوديِّ شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرَّم، ويقال: إنهم صاموا هذا اليوم شكراً لله على نجاتهم.

أينَ يقع جبل الجوديّ؟

قيل: إنه جبل بالموصل، وقيل: هو الطور، وقيل هو جبل بالجزيرة في أرض العراق تواضع لله سبحانه وتعالى فلم يغرق، وقد غرقت كل الجبال.

قال قتادة فيما نقله عن ابن كثير في تفسيره:

قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي بأرض الجزيرة عِبْرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة.

هبط نوح ومن معه إلى أسفل جبل الجودي، فابتنى قرية تستوعب الثمانين الذين كانوا معه، فسميت: «قرية الثمانين».

قال ابن كثير: فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربي، وكان نوح يخاطب كل فئة منهم بلسانها.

هنا استقرت الأمور، وهلك المكابرون، وقضى عليهم الطوفان ـ بإذن الله ـ بعد مئات السنوات من الإنكار والجحود.

وهنا استيقظت عاطفة الأبوَّة من جديد:

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

نوح هنا يستفهم من ربّه عن حال ولده الذي أبى أن يركب السفينة فغرق، وفي ذهنه عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى له: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40].

فالأهل هنا عامة لا استثناء فيها كما يبدو لأوَّل وهلة مع أن الاستثناء قد أتى مباشرة بعد هذا الجزء من الآية: ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40].

سؤال من أب حنون، من قلب الأب الذي لا يحمل إلا الحب والعطف والشفقة على الإبن.

سأل نوح ربَّه سؤال استعلام مشيراً إلا أن الله وعده بنجاة أهله، وأنَّ وعده الحق، متأدباً مع ربِّه سبحانه كلَّ التأدُّب حين قال: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

هنا كان الجواب الإلهي الحاسم.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46].

لقد خرج الابن «كنعان» عن دائرة الأهل الذين وعد الله بنجاتهم، فالله قد وعد بنجاة من آمن، وهذا الابن لم يؤمن فكان ممن سبق عليهم القول، وكانت نهايته المؤلمة مناسبة لعناده ومكابرته وعدم إيمانه.

هنا هدأ جيشان العاطفة الأبويّة، وبرز الشعور العميق بالإيمان واليقين والاطمئنان، وطلب المغفرة من ربِّ العالمين.

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42].

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43].

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 43].

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: 43].

هكذا كانت نهاية المكابر الذي أضاع دنياه وآخرته لأنه باع عقله لهواه.

«اللهم إنا نعوذ بك من الضلالة بعد الهدى»

obeikandl.com

obeikandl.com

مسائل

ذكر صاحب كتاب «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار خمس مسائل تتعلَّق بقضية نوح عليه السلام، وقومه، وابنه، وزوجته، والسفينة، رأيت في طرحها هنا ما قد يضيف إلى معلوماتنا عن قصة نبي الله نوح عليه السلام ما فيه فائدة.

المسألة الأولى:

هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟

الجواب:

من العلماء من قال بعموم الطوفان على الأرض كلها، ويشير بعض علماء الجيولوجيا إلى وجود بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء، في أعالي الجبال، وهذا يشير إلى وجود طوفان كان سبباً في ذلك:

ومن العلماء من قال بعدم عموم الطوفان على الأرض، بل كان على جهة من الأرض كان فيها نوح وقومه، ومن يعيش على الأرض من البشر.

أما القرآن الكريم فلم يشير إلى شيء من ذلك، وإنما عرض الموضوع عرضاً عاماً بدون تفاصيل، ولم يرد شيء ثابت في السنة يحدِّد هذا الموضوع.

obeikandl.com

أما موقفنا نحن فهو الإيمان بحقيقة القصة ووقوعها، ويظل عموم الطوفان على الأرض، وخصوصه على جزء منها أمرين محتملين، كلاهما في الحكم سواء.

وقد غلَّب صاحب كتاب قصص الأنبياء الخصوص بقوله: والذي أميل إليه أن يكون «الطوفان» خاصاً، وأن النوع البشري لم يكن منتشراً في الكرة الأرضية كلِّها، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح عليه السلام وذريته ومن معه.

قصص الأنبياء: ص36

المسألة الثانية:

ما ذنب الأطفال الأبرياء الذين هلكوا مع قوم نوح من أبنائهم وأحفادهم؟

الجواب:

إنَّ عموم ما يقدِّره الله على البشر من مظاهر الابتلاء أو العقاب معروفة على مدى الزمن، فهي داخلة في قضاء الله وقدره الذي لا يردُّ، فمتى حان أجل الناس صغاراً أم كباراً وقع بإرادة الله.

وهذه الزلازل والأعاصير والحوادث المختلفة تختطف الصغار والكبار والمجرمين والأبرياء، والمحسنين والمسيئين، فلا يملك الناس إلا الصبر والرِّضا بما قدَّر الله سبحانه وتعالى.

ولكل واحد من هؤلاء عند ربِّه مقام معلوم.

obeikandl.com

المسألة الثالثة:

أين جبل الجودي الذي استوت عليه السفينة؟

الجواب:

يقول النجَّار صاحب كتاب قصص الأنبياء: جبل الجودي في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة ، وهو يتصل بجبل أرمينية.

قال في القاموس المحيط: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويطلق عليه في التوراة إسم «أراراط».

المسألة الرابعة:

ما حجم سفينة نوح؟

الجواب:

لم ينص القرآن الكريم على ذلك، وإنما وصفها الله بـ «الفلك المشحون» وبأنها «ذات ألواح ودسر» والدُّسر هي: المسامير.

أما في كتب بني إسرائيل فقد ورد حديث عن حجمها أشرنا إليه سابقاً، والمهم في الأمر أنها سفينة كبيرة استوعبت نوحاً ومن معه، وكانت سبباً لنجاتهم من الطوفان الذي هلك به المكابرون.

المسألة الخامسة:

هل كان ابن نوح المذكور في القصة ابناً له حقيقة أم لا؟

obeikandl.com

الجواب:

1- ظاهر ما ورد في القرآن الكريم يفيد أنه ابنه حقيقةً، فهو من أهله، وإنما نفى الله سبحانه وتعالى عنه الأهلية في قوله: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود: 46] لأن أهليته سقطت بكفره ومكابرته فهو عمل غير صالح، وهو ممن سبق عليه القول من الذين كفروا، وهو داخل في دعاء نوح على قومه:

﴿**لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ [نوح: 26]. ﴿**وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا**﴾ [نوح: 28].

كما أنه خارج من أهل نوح بسبب كفره فلم يدخل في دعاء نوح ـ عليه السلام ـ الآخر: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [نوح: 28]. فشرط الإيمان هنا، يخرج ابن نوح من دائرة أهله.

2- هنالك من قال إن هذا الابن لم يكن ابناً لنوح من صلبه وإنما هو ربيبه ابن زوجته من رجل آخر، فكان نوح عليه السلام يناديه "ابنه" لأنه تربَّى عنده ولا دليل على هذا القول.

3- هنالك من قال: إنه ابن نوح من حيث ولادته في داره، لكنه لأب آخر جاءت به زوجة نوح عليه السلام بطريقة غير مشروعة. ويستدلون على هذا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود: 46].

وبقوله تعالى في الآية العاشرة من سورة التحريم:

﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا**﴾ [التحريم: 10].

obeikandl.com

حيث ذكرت الآية هنا «الخيانة».

وقد أشار صاحب كتاب «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النَّجار إلى أنه لا يؤيِّد هذا القول، وإنما يؤيد أنه ابن نوح عليه السلام حقيقةً، ولكنَّه لايرى حقاً مع الذين رفضوا هذا القول جملةً وتفصيلاً لأن الخيانة الزوجية لا يمكن أن تقع من زوجات الأنبياء لما في ذلك من الهجنة على النبي.

النجَّار يقول: وقد فات هؤلاء أنَّ الكفر أشد ذنباً من الزنا، وامرأة نوح قد ضربها الله مثلاً للكفر، ومن أتى الذنب الأكبر هان عليه الأصغر.

وأقول:

لقد أخطأ النَّجار في هذا التعليل، فالكفر أكبر من الزنا، ولكن الزنا ذو مساس بعرض النبي، فهو لايصح أبداً من زوجته، وإنما كانت خيانتها لنوح أنها كانت تنال منه في غيابه وتقول: إنه مجنون كما ورد عن ابن عباس. كما أن خيانة زوجة لوط كانت متعلِّقة بأنها دلَّت الناس على ضيفه دون علمه.

إن الكفر عمل شخصي يتعلَّق بصاحبه، أما الزنا فعملٌ متجاوز للمرأة إلى زوجها وأبنائها وهذا ما لايليق بزوجة نبي حتى وإن كانت كافرة.

إن مكابرة ابن نوح عليه السلام، وكفره وعصيانه وإصراره على ذلك هي التي جعلته من المهلكين مع أنه ابن نوح عليه السلام.